ملاحظات في رصد حركة الثقافة المعيارية في السعودية عبر تعاملها مع الحداثة

المنتى الشيخ عطية

إن الخلافات الثقافية التي تحدث في المجتمعات بصفة عامة فتبلور الاتجاهات والتيارات الثقافية فيها . . . كثيراً ما تعبر عن عدم انسجام ما يعرف بالثقافة . . .

فخلف مصطلح الثقافة توجد ثقافات يمكن استخلاص واختصار أنواعها بغاية التبسيط والدراسة إلى نوعين من الثقافة : ثقافة تكونت تاريخياً ومتنت أطرها، وثقافة تتكون داخل هذه الثقافة وتتسع بتأثير من المعطيات الاجتماعية في الواقع الجديد ومن تيارات قادمة من الخارج لتصل إلى حد الصدام مع أطر الثقافة الأولى .

وإذن . . فإن هناك دائماً وخلف هذا التبسيط صوت تكسير أُطُرٍ أو عظام . . لا يسمع في البداية لأنه يصدر عن حركة صراع ظاهرة تأخذ شكل الصراع ويبرز للسطح ويمتد إلى المستقبل كلما اشتدّت حدة الصراع الضمني .

وعبر حركة الصراع الثقافي هذه . . عادةً ما تدافع الثقافة التقليدية المحافظة عن وجودها آخذة مبادرة الهجوم بما تملكه من أسلحة مرتبطة بمصالح اجتماعية . . غير أنها في العادة أيضاً وفي مراحل متطورة من هجومها تضطر بسبب من إفلاسها أمام الواقع الجديد إلى استعادة اسلحة الخصم الذي يحاول بدوره بلورة اتجاهاته وإظهار تمايزه المتمشّي مع الواقع الجديد وأحلام المستقبل . . .

وفي ظل ظروف لم تتبلور ثقافياً بعد بسبب الطفرة الاقتصادية النفطية وما أحدثته من سرعة في تناول الأشياء ـ تدافع الثقافة التقليدية المحافظة عن وجودها أمام المتغيّرات الجديدة في الثقافة، والتي نبتت قسراً في رحمها . . . ويأخذ الدفاع في هذه الحالة شكل الهجوم . . غير أن هذا الهجوم المستند إلى دفاع هشّ يضطرها بسبب من طبيعتها إلى توظيف كل ما يقع في يدها للصراع، غير عابئة بأن تكون الأداة المستخدمة متحاملة أو غير صحيحة، وغالباً لا تدرك الثقافة المحافظة في ظل بلبلتها ماهية الأداة التي تستخدمها .

من هذا المنطلق تكتسب الثقافة التقليدية المحافظة صفة «المعيارية» أو صفة : «اتجاه التفكير الذي يبحث للأشياء عن مكانها في منظومة القيم المتعارف عليها والتي يتخذها التفكير مرجعاً له ومرتكزاً»[1] . . .

وهذه المعيارية تعني النظرة الارتجالية الاختزالية التي تختصر الشيء في قيمته الموجودة سابقاً أو في المعنى الذي يضفيه عليه الشخص صاحب تلك النظرة . . وهي على هذا الشكل نقيض «النظرة الموضوعية التي تبحث في الأشياء عن مكوناتها الذاتية . . وتحاول كشف الجوهري فيها بما تمتلكه من ماهية تحليلية تركيبية»[2] .

وسنحاول هنا عبر هذه الملاحظات الراصدة للمقالات النقدية في الصحافة السعودية تلمس آثار هذه المعيارية في الثقافة التقليدية المحافظة وكذلك في حركة الحداثة نفسها

والتي لوحظت لتؤكد مقولة أن شكل الحداثة المطروح هو أيضاً جنين الثقافة التقليدية الذي لم يأت من فراغ وإن بدأ الأمر في الظاهر غير ذلك.

● انتقائية الفكر المعياري:

في مقال تحت عنوان «حديث الحداثة» نشرته جريدة المدينة في ملحق الأربعاء يوم ١٨/ ٢/ ١٩٨٧ لخالد محمد باطرفي ترد المعيارية بأوجه متعددة يمكن فرز وجه بارز فيها هو الانتقائية الماسخة لآراء الآخرين وذلك بتوظيفها لتحليل الناقد الدكتور غالي شكري في خدمة غرض جاءعكس ما يريده الدكتور شكري تماماً بتحليله.. يقول كاتب المقال:

«يروي الزميل الكبير الأستاذ غالي شكري في تعقيبه على الإحصائية قصة «أحدهم» ممن ملأ الأرض ضجيجاً وبريقاً حتى سال لعاب ناشر فأصدر له كتاباً وحتى تاريخه وبعد مرور سنوات ثلاث على إصداره لم يبع أكثر من خمس وعشرين نسخة فقط لا غير يبدو أن المؤلف وبعض أهله وأصدقائه هم الذين اشتروها.

اذن هناك أغلبية صامتة بالفعل تتفرج على أقلية «مهرجة» تتحكم في قنوات الإعلام والدعاية وتسخرها لأهوائها. ولكن الحكم النهائي الأخير يعلن في الإحصائيات السرية لمبيعات الكتب والرأي المحترم «الوحيد هو الذي تقوله الأغلبية عندما تندفع إلى المكتبات لتبحث عن كاتب أو مفكر مرحوم أو مسدل عليه غضب الإعلام والمحتكرين».

ونسأل مع السائلين لماذا نحتفل في صفحاتنا وملاحقنا ومنتدياتنا الأدبية بشاعر كأمل دنقل أو صلاح عبد الصبور أو أدونيس ونصدر الأعداد الخاصة ونعقد الندوات ونلقي المحاضرات ونفتعل الدراسات والمحاضرات لذكرى موتهم أو قصائدهم أو إصداراتهم الجديدة إذا كان الجمهور «المتلقّي»، أو المستهدف لا يشتري في معرض دولي عظيم كمعرض الكتاب في القاهرة ولا بنسبة واحد بالمائة مما يشتريه لشاعر مرحوم سرقته المقابر منذ عقود وعقود؟!

ولِمَ توجه الدعوات لشعراء وكتاب برغم الإعلانات والتنويهات والتحريضات وبرغم الدعوات الملحة بالبطاقات وبالهاتف وحتى بالمقابلة الشخصية عدا إغراء العشاء والمرطبات والمقبلات الفاتحة للشهية.. لا يحضر لهم أحد يذكر اللهم إلا أعضاء الجهة المضيفة أو النادي الأدبي الداعي وبعض المطبلين والأصدقاء؟».

ينتهي المقال بعد ذلك بشتم للحداثة، ونتجاوز الشتم في عملية رصدنا لآلية حركة الفكر المعياري، إلى قراءة تحليل الناقد د. غالي شكري للاستفادة من عملية مقارنة تناول إحصائية «نجوم الحلم المصري»، مشيرين على القاريء بضرورة مراجعة التحليل الذي لا غنى عنه لتشكيل صورة متكاملة.. يقول غالي شكري: «أول احتمال يواجهنا في هذه الإحصائية أن الموتى ما زالوا أكثر حضوراً في العصر الجديد من بعض الأحياء، ولا ريب أن أحمد شوقي مثلاً يستحق القراءة في كل وقت وخصوصاً لطلاب المدارس كجزء من التراث الأدبي، ولكن ما معنى أن يكون شوقي هو شاعر ١٩٨٦؟ معناه أن «أذواق العصر السعيد» قد عادت القهقرى إلى ما قبل عبد الرحمن الشرقاوي وصلاح عبد الصبور وأحمد حجازي وأمل دنقل، ومعناه أن «شعراء العصر السعيد» لم يستطيعوا التسلل من دائرة الضوء الإعلامي الصاخب إلى دائرة الذوق العام الصامت. ومعناه أن المواهب الجديدة الحقيقية أسيرة الظل المفروض والنشر المرفوض. ومعناه أن الجماهير لم تجد نفسها عند الذين لم تقرأ لهم أصلاً ولا عند الذين راجوا دون موهبة.. فراحت تبحث عن أحمد شوقي لعله يروي العطش وهو لن يفعل، إذن هو العقم. ليس عقم الأرض ولا بوارها من الشعر، بل عقم اللحظة التاريخية غير المبدعة»[٣].

يمكن لنا عند هذا الحدّ إكمال ملاحظتنا الأولى بمقارنة انتقائية الفكر المعياري وذاتيته بالموضوعية التي تحلل الشيء إلى عناصره الأساسية بما فيها من جوهر خاص به وغير خاضع لمزاجية الشخص الذي يتناوله، والتي تعيد بناء الشيء بشكل يبرز ما هو جوهريّ فيه.

ولننتقل عبر الموضوعية إلى ملاحظتنا الثانية..

● انطباعية الفكر المعياري:

في مقال مترافق مع الأول وصادر بنفس اليوم في جريدة الندوة تحت عنوان «الحداثة والحداثيون» للكاتب حسن عبد الحي قزاز بزاويته: «على الرايق» ترد المعيارية بوجه آخر وإن تشابهت الوجوه وأدت في النهاية إلى نفسها.. هو وجه الانطباعية إذ ينصب الكاتب نفسه نائباً عن القراء في قراءة نص يورد فقرة منه للناقد سعيد مصلح السريحي. ويعتبر عدم فهمه للنص ضربة قاصمة للغة العربية والفهم العربي والقراء العرب. ثم ينصب نفسه حكماً ويصدر حكماً على

الحداثة والحداثيين بقوله: «واستميح القراء عذراً في أنني طرحت لهم هذا الأنموذج ليكون موضوعاً قابلاً لرسم علامات من الاستفهام قد توصلنا إلى معرفة حقيقية هؤلاء الكتاب واستهدافاتهم محاولة منهم إلى طمس الأدب العربي الفصيح وأهدافه وغاياته.. ثم محاولتهم التي أشك في أنها لا تبعد كثيراً عن محاولة سعيد عقل الدساس اللئيم على مكتسبات اللغة العربية الفصحى وتحويلها إلى لغة عامية أو لاتينية... احذروا أيها الحداثيون فسوف تنكشف دسيستكم في يوم قريب إن شاء الله».

ويبدو أن من الواضح في المقال وجود نظرة انطباعية ذاتية عن الحداثة تتضح أكثر بطرح الكاتب لثلاثة أسئلة إذا اجيب عليها بنعم كما يقول الكاتب فإنه «سيسير مع الحداثيين إذا ما اقتنع بوجاهة ما يكتبون» والأسئلة التي وضعها هي:

١ ـ هل أسلوب الحداثيين يتفق مع أصول وقواعد اللغة العربية؟

٢ ـ هل الطريقة التي يكتبون بها تحمل تعابير يفهمها القارىء بطريقة مبسطة وواضحة وذات أسلوب مفهوم؟

٣ ـ هل طريقتهم الكتابية الهدف منها هو إيصال الرأي إلى مسامع القاريء حتى يفكر فيه من وجهات نظر تحقق الهدف من طرح هذه الآراء وتداولها بوجهات نظر أخرى تكون مفهومة وواضحة».

ويبدو واضحاً من تركيز الكاتب على الفهم وحصر الفهم في حدود ذاته وكذلك اختزال الحداثة ضمن الأسئلة التي تدور حوله بهذه الانطباعية البعيدة عن ماهية الحداثة.. وجود النظرة المعيارية القيمية للمفاهيم والأشياء والتي تختزل العالم بما ينطبع في الذات دون تحليل أو انفتاح على جوهر ما هو مدروس وحركة تطوره والضرورة التاريخية التي أنجبته انطلاقاً من جوهر ما يحمل من خصوصيات موجودة به لا بذات الشخص الذي يدرسه مسبقاً.

● من الانطباعية إلى المحدودية:

محدودية الفكر المعياري تنبع بالدرجة الأولى من ذاتيته واعتباره العالم نابعاً منه في الغائه للآخر.. يتضح ذلك بتركيز الكاتب حسن عبد الحي قزاز في المقال نفسه على الفهم ويتضح من التركيز محاولة الكاتب الغاء عملية التفكير بالنص أو عيشه بمعاناة جمالية تؤدي إلى زيادة معرفة القاريء بنفسه وبالعالم من حوله عبر المناقشة الداخلية مع النص وهو جزء من فهم الحداثة لعملية القراءة وعملية التعامل مع نص المطلوب من القاريء المشاركة في كتابته عبر الغاء عملية تلقين القاريء كما يفهم من الحداثة في احترامها لذهنية القاريء ورأيه وعدم الوصاية عليه، وعدم اعتباره طفلاً أو بهيمة تساق بعصا الكتابة ـ يقول الكاتب حسن عبد الحي قزاز: «ثم أن الناس في هذه الأيام لديهم مما يشغلهم في طلب العيش وأسباب الحياة أكثر مما يشغلهم في قراءة كلام يحتاج إلى وقت للفهم.. ثم إلى وقت إضافي للهضم» ثم يقول في موضع آخر: «ولا يؤاخذني أصدقائي القراء إن كنت قد أضعت وقتهم في التفكير للوصول إلى مفهوم لهذه الفقرة التي لا تتعدى سطوراً قليلة».

ويقصد بالفقرة فقرة الناقد سعيد السريحي التي تعبر عن نقيض للمحدودية وعن عملية الغنى التي يمكن أن يعيشها القاريء ويفكر بها ويستمتع ويكتب من خلالها، ويكتشف علاقة الزمن بعملية الإبداع وعلاقة وجود الإنسان بالكلمة وعملية الإبداع أيضاً إضافة إلى الإعلان الواضح فيها بضرورة تماسك الإنسان وتمجيد الكلمة.. حيث تقول نهاية الفقرة عن الكلمة: «وكانت الكلمة النطفة يودعها الإنسان رحم الآتي.. ينتزعها من صميم العدم الساري في حياته.. يعلن بها أن انساناً دَبَّ على هذه الأرض حَرِيٌّ به الا ينتهي مضغة في شدق الفناء»[٤].

● من المحدودية إلى المخاتلة:

مخاتلة الفكر المعياري تأتي من ضعفه النابع من الانتقائية والانطباعية والمحدودية والتجزيئية التي تملؤه بثغرات يحاول سدها باللجوء إلى استخدام سلاح الفكر الشمولي الخصم وهو الموضوعية. وتكاد النصوص المعيارية ان لا تخلو خاصة في مقدمتها من الإعلان أنها موضوعية.. غير أن الموضوعية كما قلنا هي تحليل للأشياء إلى عناصرها الأساسية وإعادة بنائها بشكل يبرز الجوهري فيها «إضافة إلى كونها (حكم بأحكام الكيفيات والكميات واستعمال الأمور الجسمانية) كما يعبر الشهرستاني[٥]، أي نقيض الحكم على الشيء من خلال أهم صفاته بالنسبة لمن يقوم بالحكم والقائم على البديهية والارتجال.. يلاحظ كل ذلك في نفس مقال «الحداثة والحداثيون» إذ يقول الكاتب حسن عبد الحي قزاز: «وتعالوا نناقش المواضيع التي يطرحها الحداثيون ثم نناقش أفكارهم ثم نناقش أهدافهم من وراء تفكيرهم ومن مقاصد اهدافهم حتى يأتي الكلام عنهم موضوعياً يحمل معنى

ويحمل مبنى ذا مغزى ويحمل رغبة في الوصول معهم إلى ما قد يحملهم عن العدول عن ما يعملون من أجل تحقيقه». وطبعاً تتبلور الرغبة في الوصول معهم في المقال إلى انطباعية وذاتية ومحدودية وردت في الفقرات السابقة إضافة إلى حمل عصا الكتابة خلف أوراق النقاش.

● من المخاتلة إلى الأيديولوجيا:

لا تكتفي الثقافة التقليدية المعيارية المحافظة بهذه السمات.. وهي في حركة صراعها مع الحركات التحديثية تستخدم الأيديولوجيا غير المنفصلة بطبيعة الحال عن الثقافة وبشكل صريح علني يصل مع عبد الله مليباري ومحمد موسم المفرجي اللذين يستخدمات منبر جريدة الندوة إلى حد تذنيب وتكفير المحاولات الجديدة واتهامها بأنها هدامة.. لكي يبررا لجوءهما إلى طلب مصادرتها وإيقافها.

ولا يقتصر الأمر على أصحاب ردود الفعل السريعة هؤلاء.. فبالانتقال إلى مستوى أرقى في تعامل الثقافة التقليدية مع الحداثة وهو مستوى الشباب الجدد الذين استفادوا من دراساتهم للآداب الأجنبية (الغربية خاصة) تنتقل «المعيارية» في هذه الثقافة إلى توظيف التحليل الموضوعي الذي تستخدمه في لا موضوعية إصدار الحكم على الأعمال الأدبية الحديثة الخاضعة لذلك التحليل. ومن ذلك ما فعله الناقد عبدالله حكيم في تحليله لقصة الكاتبة رجاء عالم: «ألف ضفيرة وقهرمانة» في ملحق الأربعاء الأسبوعي لجريدة المدينة[٦] والذي يطلب فيه من المهتمين محاسبة الكاتبة على أفكارها التي استخرجها من نصها والتي تحاول فيها عبر حركة اللغة المتفاعلة مع الميثولوجيا الانعتاق من البطريركية...

كما تنتقل المعيارية إلى الحكم التعميمي الإيديولوجي على الحداثة من خلال التفكير ببعض الممارسات الخاطئة لبعض المنتمين إليها.. واتهام الحداثة «بالديكتاتورية» ومصادرة الرأي الآخر وهدم التراث.. ومن ذلك الحكم التعميمي الذي أصدره المنشق عن الحداثة عبدالله سلمان في مقاله بملحق الأربعاء الأسبوعي: «سيرة الحداثة من الداخل»[٧] والذي يعبر عن فهم معياري تقليدي للحداثة بأنها نقيض التراث.

● آثار المعيارية في الحداثة:

إذا اعتبرنا أن من الطبيعي نشوء الحركات الثقافية الجديدة من ثقافات سابقة لها.. فإن «الحداثة» السعودية تؤكد هذه المقولة.. ليس فقط باستخدامها التراث الإسلامي في لغة التعبير كما يلاحظ في شعر «الثبيتي»، و «عبدالله الصيخان» ومحاولتها إقامة التحديث على أسس التواصل مع تراث الأجداد الجوهري.. وإنما تتأكد هذه المقولة أيضاً بتأثر المنتمين إلى الحداثة دون أن يدركوا ذلك بالثقافة التقليدية ووجود شوائب هذه الثقافة بمنهج التفكير لدى الكثيرين منهم.. وربما كان لهذا ما يبرره، فالحداثة السعودية حديثة العهد أولاً.. والحداثة السعودية لم تؤسس سماتها الخاصة بعد كما حدث في سوريا ومصر والمغرب العربي.. ولذا فإننا نتلمس آثار المعيارية في الحداثة السعودية رغم إصرارها وتأكيدها على الموضوعية في نقضها للثقافة المعيارية التقليدية...

ومن ذلك ما نجده في كتابات الحماسة الشديدة للحداثة (وربما بسبب هذه الحماسة وبسبب ردة الفعل لاستفزازات الثقافة التقليدية العنيفة).. والتي تقع في فخ الترويج البعيد عن الموضوعية لكتابات لا تتمتع بما يقال فيها أو لكتابات يبالغ كثيراً في قيمتها.. كما حدث مع الدكتور عبدالله الغذامي في حديثه عن المحلية والخصوصية وحركة الدلالات في كلمات الشاعر عبدالله الصيخان[٩] واستخدامه مصطلح «القاموس الصيخاني» وكما حدث مع الناقد سعيد مصلح السريحي الذي رد على استفزاز التقليديين بدعوة لكتابة الغموض كغموض، وكما حدث أيضاً مع القاصة الموهوبة رجاء عالم بردها على استفزاز الكاتب عزيز ضيا في الأمسية القصصية التي أقامها لها نادي جدة الأدبي، عندما أبدى عدم فهمه لقصتها.. بأنه لا يهمها أن يفهم كتاباتها أحد.

جده

المصادر:

(١) د. عابد الجابري - تكوين العقل العربي.
(٢) المصدر السابق.
(٣) مجلة الوطن العربي (٦/ ٢/ ١٩٨٧) - غالي شكري - نجوم الحلم المصري.
(٤) سعيد السريحي - الكتابة خارج الأقواس (كتابة نقدي).
(٥) د. عابد الجابري - تكوين العقل العربي.
(٦) جريدة المدينة - ١٥/ ٤/ ١٩٨٧ - ملحق الأربعاء - عبدالله حكيم.
(٧) المصدر السابق - عبدالله سلمان.
(٨) محمد الثبيتي - التضاريس (مجموعة شعرية).
(٩) جريدة عكاظ - ٣٠/ ٣/ ١٩٨٧ - عبدالله الغذامي - أسئلة الكلمة.
(١٠) أمسية قصصية بنادي جدة الأدبي - ٢٢/ ٣/ ١٩٨٧.